محكم

الرافعي الفقيه – الفيلسوف أو استئناف القول الفلسفي في المغرب الحديث

إبراهيم بورشاشن

باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

الملخص التنفيذي:

غرض هذه المقالة إبراز الإرهاصات الكبرى لظهور الفكر الفلسفي في المغرب، فضلاً عن أنّها تروم بيان أنّ الفقيه المغربي لم يكن بعيدًا عن الهم الفلسفي، وإن كان الهم عنده يصدر عن عقلية فقهية لمّا تتحرر بعد من هواجسها العملية الآنية. وقد أبان الباحث في المقالة مختلف الأوجه التي برز فيها الرافعي أقرب إلى الفلسفة والفلاسفة كما رآه عصره، وأهل زمانه، لينتهي في الأخير إلى أنّ اشتغال الرافعي بالفلسفة وتوسله بأدواتها لم يعطه الريادة الفلسفية في المغرب الحديث، وهي الريادة التي ستكون من نصيب محمد عزيز الحبابي، أول من دشن الفكر الفلسفي بالمعنى الحديث في المغرب الحديث.

لقد أمضني موضوع محمد الرافعي بجملة من الأسئلة التي كانت وما تزال تراودني حول طبيعة نشأة الفكر الفلسفي في المغرب المعاصر، إذ من المعروف والمتداول أنّ الفلسفة في هذا البلد قد انتهت مع محنة ابن رشد وغادرت موطنها إلى الضفة الأخرى بعد موته بقليل، ولعل نقل جثمانه من مراكش إلى الأندلس لأكبر دلالة رمزية على ذلك، وأنّ الذي أعاد تدشين القول الفلسفي في المغرب هو المرحوم محمد عزيز الحبابي، عندما نشر كتابه الأول من الكائن إلى الشخص.

لكن كيف يمكن اعتبار الحبابي كذلك وقد سبقه إلى هذا الضرب من القول رجل أنجبته أزمور في ميدان الفكر، كما قال عبد الله العروي في غربته، الفقيه الفيلسوف محمد الرافعي؟

والقصد من هذا القول هو البحث في طبيعة علاقة ملتبسة للرافعي مع القول الفلسفي نافس بها الحبابي، لكنها قصرت به عن الريادة الفلسفية في المغرب الحديث، لشروط موضوعية وذاتية أخطأت فقيهنا الفيلسوف وحضرت بقوة عند فيلسوف المغرب الأول محمد عزيز الحبابي.

.1.

خصوصية نشأة الرافعي

أزمور مهد الرافعي

في هذه المدينة الدكالية، وقبل مائة وثلاثين سنة ولد محمد بن أحمد الرافعي الدكالي البوعزيزي، ولقبه نسبة إلى أولاد رافع بقبيلة أولاد بوعزيز بناحية الجديدة. نشأ يتيمًا، لكنه وجد في جده لأمه أبًا وشيخًا ومربيًا، فكان أن غرس فيه فضيلة حب العلم؛ فنهل منه في أزمور ومدارس قبيلة أولاد بوعزيز.

وقد كان الرافعي يحكي "عن ازدهار العلم في أزمور، ويذكر أنّ خزانات كتب حافلة بنفائس الكتب القديمة كان أدركها في أزمور"، وقد تمكن من دراسة كتب كانت عزيزة على الناس، ويذكر المختار السوسي من ذلك كتاب "الإنصاف في مسائل الخلاف" الذي ينسبه إلى ابن العربي المعافري، وهو كتاب يذكر السوسي أن لا أحد ذكره غير "الأستاذ الثقة"[1]، كما يسمي الرافعي. ولعله يكون الكتاب المنسوب إلى ابن سيد البطليوسي. ثم انتقل الرافعي إلى بادية أزمور ليدرس في مدارسها العتيقة ينهل من العلوم قبل أن ينتقل إلى فاس بجامعة القرويين. بعد هذه الدراسة الأكاديمية، إن صح القول، سيتفرغ الرافعي للمطالعة حيث كان "من أعجب

[1]- المختار السوسي، مشيخة الإلغيين من الحضريين، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى 2010، ص 263

الناس في المطالعة، مع تثبت فيها واستظهار وحفظ"، فتصبح علاقته بالكتاب علاقة عشق دائم، فقد كان "يطالع كل ما وجده من مختلف كتب الفنون أيّا كانت ... فالمطالعة لم يتخرج من سوى مدرستها في فنون شتى"[2]. وقد ساعده على ذلك أنّه عاش عزبًا، عازفًا عن الوظائف، ولم يكن له هم في متاع الدنيا[3]، فضلاً عن حبه للمناظرة ليستوي عالماً يضاهي علماء المغرب الكبار.

شهرة الرافعي

يشهد المختار السوسي في مشيخة الإلغيين على شهرة الرافعي، "الباقعة الجديد" كما يسميه عند أول لقاء به بالجديدة، "ويستغرب "كيف تتسع شهرة الرجال وكيف يقع الإجماع على رجل نال ما نال"[4]. لكن عبد الهادي بوطالب يقيد هذه الشهرة فيجعلها عند نخبة ضيقة وليس عند علماء المغرب كافة، إذ إنّ الرافعي قصر جهده العلمي على من يرتاد بيته في الجديدة[5]، فحرم الإشعاع على الرغم من عبقريته. أما شهرة الرافعي فكانت تتراوح بين كونه فقيهًا تيجانيًّا وفيلسوفًا متفتحًا، عند دائرة ضيقة، وبين مثوله أمام محكمة الجن بالسنغال، عند العوام[6]. شهرتان فيهما من المفارقة الكثير ولكنها تدلان معًا، في المخيال الاجتماعي، على مكانة الرجل العلمية بين الثقلين.

علاقة الرافعي بمعاصريه

كان بيت الرافعي مكانه المفضل[7]، إذ فيه استقبل العلماء والمستشرقين الذين كانوا يهبون إليه، لذلك لم ينتفع به معاصروه، خاصة وأنّه "انتبذ عن مجالات الدراسة ...فقنع بالهدوء والسكون بالجديدة"[8]. لكن هذا العشق لـ"الجديدة" لم يحل والرافعي والرحلة، فقد كان الرافعي كثير الزيارة لمدينة الرباط حيث اجتمع فيها بالشيخ أبي شعيب الدكالي[9]، وكانت له معه مراسلات[10]، ويبدو من رسالة العزاء التي أنشأها الرافعي بعد موت

---

[2]- المختار السوسي، مشيخة الإلغيين من الحضريين، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى 2010، ص 263

[3]- المصدر نفسه، ص 269

[4]- المصدر نفسه، ونفس الصفحة.

[5]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 11

[6]- يتداول العامة أنّ الرافعي كان يهوى القنص، فأصاب قنفذًا، فأغمي عليه، فلما استعاد وعيه أخبر عواده بأنّه كان يحاكم في بلاد السنغال أمام محكمة الجن، وأنّه رافع مرافعة برأته من دم القنفد، حيث أبرز أنّ كل من انتحل صفة ليست هي صفته الحقيقية يقتل شرعًا، أنظر شيخ فلاسفة المغرب، ص 45

[7]- يذكر المختار السوسي أنّ مسكن الرافعي بالجديدة كان عارية من رجل كريم فقط، مشيخة الإلغيين، ص 269

[8]- مشيخة الإلغيين، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[9]- انظر عبد الله الجراري، المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي، الشركة الجديدة للثقافة، الطبعة الثانية 1979 ص 14 وشيخ فلاسفة المغرب، ص ص 42-40

[10]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 61

شيخ السلفية في المغرب أنّ فقيهنا كان يتحرك في الفضاء العلمي للشيخ، وأنّه كان يجد منه السند والدعم[11]. ولعل هذا يفسر لنا إكباره للشيخ محمد عبده أيضًا[12]. وإن لم يكن مكبرًا لرشيد رضا[13]. كما لقيه بالرباط أكثر من مرة أحمد الزبدي الرباطي، الذي يذكر أنّ كثيرًا من الطلبة بالرباط استفادوا من علم الفقيه ـ الفيلسوف الدكالي[14]، ويذكر محمد السائح الأمر نفسه[15]. وأخذ عنه كذلك الأستاذ عبد الرحمن الدكالي، ونعاه بأبيات ذكر فيها أنّه كان شيخه[16].

لقد تعددت علاقات الرافعي بمعاصريه، لكن حديثي هنا سيكون عن علاقة الرافعي الدكالي بالدكتور محمد عزيز الحبابي في شأن الأسبقية الفلسفية في المغرب. مع العلم أن لا أحد لقي شخص الآخر. لكن هذه المقارنة لن تكون هنا إلا عرضًا، لأنّ القصد من هذا القول أن نعرف بشخصية مغمورة في ثقافتنا المغربية، وتكفينا الإحالات اللماحة لرجل طبقت شهرته الآفاق ليستقيم القول العلمي هاهنا.

-2-

الرافعي والفلسفة

الرافعي فقيهًا و"فيلسوفًا"

لقد وُصف الرافعي بأنّه "مفكر عظيم وفيلسوف خطير" كما قال صديقه ومعاصره الأستاذ أحمد زياد بن الحسن في الذكرى الأربعينية لوفاته. ووصفه الأستاذ عبد الله الجراري، الذي اجتمع به، بـ"عالم المغرب وفيلسوفه النادرة"[17]. ووصفه المنوني "بالفيلسوف المغربي"[18]. ووصفه ابن الحاج بأنّه "العلامة الفيلسوف الشهير"[19]. وسماه صديقه العلامة محمد السائح بـ"صاعقة العلم المتكلم الفيلسوف"[20]. وَوُصِف في مقدمة

---

[11]- يقول الرافعي في الرسالة: "ولي أن أقول متحريًا، إنّكم، كغيركم، المشاركون لي في الأسف والأسى بفقده من هذا العالم، الذي لولا وجود أمثاله، وقل له المثيل والنظير، ما حلا بعيني الإقامة فيه، ولو فوق ناقة...فما عيشي بعد فقدي لأمثاله بعيش، ولا حياتي بحياة" شيخ فلاسفة المغرب، ص ص 97-98

[12]- مشيخة الإلغيين، مرجع سابق، ص 264

[13]- يذكر المختار السوسي أنّ سبب ذلك يرجع إلى "مضغ الشيخ رضا "بأعراض الصوفية، ويرى أنّ ما يصدر عن المذكور إنّما هو الغيبة وعدم التبصر"، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[14]- احمد زيادي، شيخ فلاسفة المغرب، ص 36

[15]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 63

[16]- نعم، مات شيخي الرافعي وإنّه ــ لركن الهدى يا للهدى قد تثلما، شيخ فلاسفة المغرب، ص 53

[17]- المحدث الحافظ، مرجع سابق، ص 14

[18]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 46

[19]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 46

[20]- شيخ فلاسفة المغرب ص 59

رسالته في مسألة القيام للتعظيم بـ"الفيلسوف الكبير"[21]. ووسمته جريدة السعادة، وهي أول جريدة تصدر في المغرب، بـ"حامل لواء المنطق والبيان والمعقول والمنقول"[22]. كما وصف بـ"الفيلسوف المتكلم"[23]. بل إنّ الرافعي لما قضى نحبه لم يسمع الناس إلا عن وفاة عالم فيلسوف[24]. فكيف يصح، بعد هذا كله، أن يتسلم غير الرافعي زمام الريادة الفلسفية في المغرب؟ أليس من الإنصاف إعادة الأمور إلى نصابها واعتبار محمد الرافعي مدشنًا للقول الفلسفي في المغرب؟

1- الرافعي يكتب عن هيجل

عندما نقف عند المقالة التي كتبها الرافعي عن هيغل، والتي اختير لها عنوان "ما الذي أفهم من هيغل؟"[25]، نجد فيها كثيرًا من المعطيات التي تدلنا على بعض من شخصية هذا الفقيه الفلسفية:

أولها، اهتمامه بالحركية الثقافية الفلسفية في عصره، وهو ما يطرح علينا بعض الأسئلة؛ فالمقالة كما يصرح الرافعي أتت بعد أن "جرى البحث في فلسفة هيغل الألماني الحلولية عن معنى السلب والإيجاب في كلامه". نفهم من هذا أنّ وسطًا ثقافيًّا مغربيًّا كانت تهمه فلسفة هيغل ويطرح ما تثيره هذه الفلسفة من إشكالات فكانت مقالة الرافعي جوابًا عن هذا السؤال.

إنّ جواب الرافعي كانت له خاصيتان؛ الأولى أنّه أجاب "بما كان حاضرًا يلوح من خلال كلامه"، فالجواب أشبه ما يكون جوابًا تلقائيًّا.

الثاني أنّ الجواب يعبر عن اقتناع الرافعي بموقفه من هيغل الذي سوف يصفه أولاً بـ"الحلولي". قبل أن يدمغه بـ"الفيلسوف المتعسف المادي الجهول الذي لا يرجو لله وقارًا"، معتبرًا أنّ هيغل قد احتذى "حذو اسبينوزا البرتغالي ويخطو خطوه، وينظر إلى أبعد مما نظر إليه"، منتقدًا قولهما بوحدة الوجود، حيث "ذهب كلاهما إلى أنّ الحق، جل جلاله وتعالى عما يقول الظالمون والمعطلون علوًّا كبيرًا، حقيقته قوة طبيعية كلية متصلة بالكون اتصال كل قوة طبيعية بمطبوعها، فعالة فيه على الدوام، فعل كل طبيعة بلا شعور ولا إرادة"

---

[21]- شيخ فلاسفة المغرب، ص117

[22]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 103

[23]- سل النصال، ص 97، ذكره أحمد كافي في مقلته عن العلماء المغاربة العزاب، ص 97

[24]- شيخ فلاسفة المغرب، ص77

[25]- انظر نص المقالة في مجلة الثقافة المغربية العدد 21 السنة الخامسة مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر- البيضاء 1981، بتقديم حسن السائح.

ومنتقدًا قولهما بما سماه "الحبط" أي ردهما النظام والإتقان الملاحظ في الكون إلى كونه فقط "عن مجرد المصادفة".

ولا تستطيع أن تميز في كلام الرافعي بين موقفه وبين مقالة الكونت دي كلارثا الذي صرح أنّه اعتمد عليها في كتابته عن هيجل، إلا هذه الروح الفقهية التي تخترق المقالة لغة وروحًا.

إنّ القول عن هيغل كان سببه سؤالاً "عن معنى السلب والإيجاب" في كلام هيغل، ويذكر الرافعي أنّه اعتمد في جوابه، تدقيقًا وإمعانًا، على كتاب الفيلسوف الإسباني السابق، وهو "كتاب في الحكمة النظرية الباحثة عن حقيقة العقل والإدراك التصوري والتصديقي ومعنى الشعور والانتباه وحقيقة الوجود وطريقة اقتناصه تصورًا وحكمًا" كما يقول هنا، ويقول في مكان آخر إنّ هذا موضوع الكتاب "الحكمة النظرية الباحثة في حقيقة العقل والإدراك التصوري والتصديق، كما يعالج أبحاثاً نفسية عن الشعور والانتباه وحقيقة الوجود".

فما معنى السلب والإيجاب موضوع المقالة؟

ينقل الرافعي عن الفيلسوف الإسباني أنّ الفلاسفة الأوروبيين يستعملون هذين المعنيين "الإيجاب والسلب في التعلق النسبي الذي يكون بين طرفين"، بحيث تقتضي "كل نسبة طرفين"، وهذه النسبة هي نسبة عامة تتجاوز التأثير والتأثر أو السبب والنتيجة، فيكون الفاعل إيجابًا والمفعول به سلبًا. ويقدم الرافعي على ذلك أمثلة "مثال ..التعلق الذي بين المدرِك والمدرَك، والمنتبِه والمنتبَه إليه، والعالم والمعلوم، والقادر والمقدور، والمريد والمراد"، ويترتب على هذا قضايا أنطلوجية تتعلق بعلاقة الله بالمادة. وإذا كان الرافعي وسم هيغل من قبل بـ"الفيلسوف المتعسف المادي الجهول"، فلأنّه يذهب أيضًا إلى أنّ الله عنده "مؤثر في الكون كله...و[أنّ] الكون كله مادة له ...فيسمى بمقتضى هذا موجبًا، ومحل تأثيره الذي هو المادة ...موضوعًا وسالبًا"، و"بتكرار هذا التأثير والمتأثر، والفعل والانفعال"؛ أي بتكرار "الإيجاب والسلب، واستمراره أحقابًا طويلة، يتطور الكون وينتقل من حالة إلى حالة، متدرجًا في الرقي ....إلى أن يبلغ كل من الصانع والمصنوع غايته في الكمال اللائق به". لكن اسبينوزا، حسب الفيلسوف الإسباني كما ينقل الرافعي، يطلق في "بعض تعاليمه أنّه تعالى، مع كونه قوة طبيعية حاكمة على كل القوى التي من جنسها، هو متصف بحياة هي مبدأ كل حياة في كل حي مما ها هنا، وبإرادة وعلم هما الأصلان الأصيلان لما يوجد في الكون من علم وإرادة، إلا أنّه تعالى لا يخرج عن كونه قوة طبيعية، واتصاله بالمادة اتصالاً حقيقيًا على المعهود"، ويستنكر الرافعي هذه النتيجة الإسبينوزية قائلاً بعد هذا العرض "تعالى ربنا عما لا يليق بجنابه الأقدس".

إنّ الرافعي وقد عرض بلغة فقهية وحس فلسفي ما بدا لـه من قول الفيلسوف الإسباني في السلب والإيجاب من خلال هيغل واسبينوزا، ينهي مقالته بما فهمه هو من مذهب هيغل "على ما في العبارات المترجمة لفلسفته من جفاف"، كما يقول، وكأنّ هذا الإسباني قدم مذهبهما بعبارة ضيقة شكلت الضروري الذي لا يتسع لغيره مما يجعل الأمر عليه مستعصيًا.

ماذا فهم الرافعي من هيغل؟ فهم أنّه يقول بـ"التطور المنطقي" مثل أرسطو ويقول بـ"نظرية الخلق المستمر" و"تجدد الخلق كما هو رأي ديكارت" مع أنّها ليست من مبتكراته الفلسفية، وهذا المعنى نفسه يعبر عنه هيغل "بدوام الحركة والترقي للمطلق" وبقوله إنّ "العالم لا وجود له من ذاته، بل من خالقه...". وقد عبر هيغل عن الخالق بـ"المطلق أو المثال"، ولذا سمى الرافعي مذهب هيغل بـ"مذهب المثال الباطني القائل بأن لا وجود للأشياء العالمية إلا في الفكر، وبواسطته"، وينتهي الرافعي إلى خلاصة هيغلية تقول إنّ "العالم موجود وغير موجود"، بل لأن يكون غير موجود أحرى منه أن يكون موجودًا، ويستشهد الرافعي بقول لمالبرانش إنّ "حقيقة الأشياء الخارجية ليست مؤكدة لنا إلاّ بالوحي".

الرافعي والمفاهيم الفلسفية

في التقريظ الذي كتبه الرافعي لكتاب "دليل الحج والسياحة" لصاحبه أحمد الهواري تبرز بعض من شخصية الرافعي الفلسفية، سواء من حيث المفاهيم الموظفة خلال المقالة من مثل "واجب الوجود"، "الكمالات النفسانية"، "الحكمة النظرية"، "الكمال الأول"، "الجوهر العاقل"، "القوة الفكرية"، "الماهيات" و"الصور" و"عالم القوة وعالم الفعل" و"الوجود الذهني" و"الوجود الخارجي"، وغيرها من هذه المفاهيم التي أنشأ بها تقريظه. لكن ما يلفت المشتغل بالفلسفة في هذه المقالة هو ما ختمه بها من حديث فلسفي عن ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات وعن دلالة ما يتركه من آثار علمية تدل عليه.

إنّ الكتاب الذي ألفه السيد الهواري يكشف أنّ هذا الرجل يتميز بعقل راجح. وبعد أن يورد الرافعي بعض الأبيات الشعرية التي تشير إلى هذا المعنى وكذا بعض أقوال الحكماء يكتب خاتمة فلسفية يبرز فيها تحقيق ذلك وسره كما يقول.

إنّ هذا السر والتحقيق يوجد في "الحكمة النظرية" حيث تتميز الأنواع داخل أجناسها بفصولها المقومة لها، فبهذه الفصول تخرج الأنواع من "حين الإبهام إلى فضاء التفصيل، والتمييز التام عن كل مشارك في الأجزاء الذاتية"، ويترتب على الكمال الأول لكل كائن طبيعي "آثاره الخاصة به". وبالنسبة إلى الإنسان فقد "أطبق أول النظار عن آخرهم أن لا مميز أكمل من القوة

الفكرية والجوهر العاقل المختص بالإنسان"، ويستدلون على ذلك بآثاره "وما خص به من الاستعداد للاتصاف بسائر الفضائل وضدها، وقبول التحلي بآثار الأسماء الحسنى المختلفة المقتضيات والآثار". وما دام الإنسان هو بالروح وليس بالجسم إنسانًا، فإنّ آثار الإنسان في "مثال حقيقي تام لصورته العلمية التي هي في الحقيقة حقيقته"، وإنّ "أكمل الآثار عند كملة الرجال وصناديد النظار، هي الآثار العلمية" التي "تفوق كل أثر مادي"، لأنّ "صاحب الآثار العلمية" ما ينشئه هو مجرد "عن المواد وملابسها"، وبالتالي فهو لا يقف عند حد، وغاياته لا متناهية، فـ"من هناك يتفنن ويتنوع، ويجول في مجالات لا نهاية لها بل هي أرقى من عالمنا ومدركاتنا، ويأتي منها بالعجائب والغرائب...". وهكذا يخلص الرافعي إلى أنّه مادامت "آثار الإنسان دليل عليه، وأكمل الآثار كان من باب العلم والإتقان فيه"، فإنّ رحلة السيد الهواري "جاءت دليلاً كاملاً وشاهدًا محسوسًا على ما له من الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من حسن الإدراك وحسن البيان"[26].

3- الرافعي وعلم الفلك

لم يكن الرافعي محبًّا للفلسفة فحسب، بل كان محبًّا للعلم أيضًا وممارسًا له، وبخاصة علم الفلك الذي كان أثيرًا عند فلاسفة الإسلام. فقد ناقش الرافعي الشريف الجرجاني في قضية علمية تتعلق بالصواعق والبرق وصرح أنّ "ما ذكره الجرجاني في سبب البرق والصواعق وتكونهما هو خلاف ما ذهب إليه جل علماء الطبيعة من القدماء وخلاف إجماع أهل الفن والحكمة من العصريين، وما يكاد يوجد له دليل ولا في أحط رتبة في الظن اللهم إلا أن يؤول كلامه"[27]. إنّ الرافعي يتحدث بثقة كبرى في الموضوع لأنّه جمع إلى جانب البعد النظري بعدًا عمليًّا عكسه اشتغاله الخاص بعلم الفلك. وقد أهدى السلطان المولى عبد الحفيظ الرافعي إسطرلابًا تقديرًا له على هذا الاهتمام[28]. فهل بهذا الجمع بين الفلسفة والعلم والفكر النقدي استطاع الرافعي أن يستأنف قولاً مغربيًّا فلسفيًّا كان قد انتهى من هذا البلد منذ زمن بعيد؟

السمات الفلسفية في شخصية الرافعي

لقد اجتمعت للرافعي عوامل كثيرة كان من الممكن أن تجعله صاحب الريادة المأمولة.

[26]- انظر نص التقريظ في شيخ فلاسفة المغرب، ص ص 103-110 وهو موسوم بـ "ما الحلي إلا زينة لنقصيه"، وكان قد نشر بجريدة السعادة العدد 4232 ص ص 16-23

[27]- ذكرها موسى أزدي، في مقالته الصغيرة القيمة محمد بن أحمد الرافعي المولود بأزمور حوالي 1883 والمتوفى بالجديدة 1940 ضمن أعمال ندوة: دكالة تاريخ وفكر التي نظمتها جمعية دكالة مع جامعة شعيب الدكالي بالجديدة 1989

[28]- شيخ فلاسفة المغرب، ص67

الرافعي قارئًا جيدًا

كان الرافعي قارئًا جيدًا، إذا كان ابن رشد يحكي عن نفسه أنّه ما ترك القراءة سوى ليلتين؛ ليلة وفاة والده وليلة بنائه بأهله، فإنّه يحكى عن الرافعي أنّه كان لا ينام إلا عند الفجر، يُسْهره فقط عشقه الكتاب. ويذكر المختار السوسي في مشيخته وهو الذي تتلمذ للرافعي وعرفه عن كثب، أنّ الرافعي كان قارئًا نهمًا للفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية، وله في "أحاديثه جولان كثير في رجال الفلسفة الحديثة والقديمة، وقد درس القديمة دراسة وافية، فيسمع منه الجليس عن المشائين والإشراقيين، والفارابي وابن رشد وابن طفيل وابن باجه من الإسلاميين، وعن أرسطو وأفلاطون وسقراط من اليونانيين، ما يقضي به عجبًا، فيسرد ذلك كما يسرد غيره أبواب الإعراب وفرائض الصلاة ومسائل بيوع الآجال والوارثين من الرجال والنساء"[29]. وتتميز الكتب التي قرأها الرافعي بما كان يخطه على هوامشها "من انتقادات وتعليقات ومراجعات وملاحظات وتصويبات واستدراكات وترجيحات وإبطال". ومن أهم الكتب التي كان الرافعي ملازمًا قراءتها وعليها هوامش بخط يده؛ كتاب العبر لابن خلدون، أمالي القالي، وفيات الأعيان لابن خلكان، كتاب الأغاني للأصبهاني، كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري، المحلى لابن حزم، المواقف للإيجي، قصة الفلسفة اليونانية وغيرها من الكتب، وبعد أن انفرط عقد مكتبة الرافعي وتفرقت كتبه شذر مدر أصبح التعرف على شخصية هذا الرجل العلمية من الصعوبة بمكان. كما أنّه كما يبدو في هذه الكتب أنّ الكتب الفلسفية تكاد تنعدم في حين أنّ العقلية الفلسفية التي تميز بها الرافعي وشذ بها عن أقرانه وشف بها عليهم ما كان لها أن تتكون لديه لولا إمعانه في مطالعة النصوص الفلسفية. وما بأيدينا من معطيات تكاد لا تفي بهذا الغرض سوى أنّه طالع كتاب الفيلسوف الإسباني الكونت دي كلارثا، وهو كتاب في الميتافريقا يعالج كما يقول الرافعي "الحكمة النظرية الباحثة عن حقيقة العقل والإدراك التصوري والتصديق كما يعالج أبحاثًا نفسية عن الشعور والانتباه وحقيقة الوجود"[30]. ويشير صديقه حسن السائح أنّ الرافعي كان يدرس الفلسفة الغربية دراسة ابستمولوجية معرفية ولم يكن يدرسها إيديولوجيًّا واختيارًا وموقفًا[31]. ولكننا نفتقد معطيات هامة عن هذا الجانب مما يجعل من العسير علينا أن نقول قولاً فصلاً في هذا السياق.

---

[29]- مشيخة الإلغيين، مرجع سابق، ص ص 263-264

[30]- شيخ فلاسفة المغرب، ص ص 35-36

[31]- شيخ فلاسفة المغرب، ص 39

الرافعي والسؤال

كما كان الرافعي محبًّا للسؤال، يفتتح به ردوده على معارضيه، ويوجهه إلى علماء العصر ـ ففي رده على كتاب "صفاء المورد، في عدم القيام عند سماع المولد" والذي كتبه الفقيه محمد بن الحسن الحجوي، لما لاحظ أنّ الناس بفاس عند احتفالهم بمولد الرسول عليه السلام وعند سردهم "المولد الشريف، والوصول إلى ذكر وضع أمه له صلى الله عليه وسلم، ينهض جميع من حضر وقوفًا على الأقدام، ويبقى الكل على تلك الحالة مدة ليست بالقصيرة أكثر من مدة الصلاة على الجنازة بكثير". وقد أفتى الحجوي بأنّ "حكم القيام هو الكراهة، أما طول القيام...[ف] المنع"، وقدم أدلته[32].

قبل أن يرد الرافعي على الحجوي قدم بين يدي مقاله جملة أسئلة: هل القيام لتكريم العظيم مناقض لشيء من مقاصد الشرع الثلاثة أو مكملاتها؟ وإن كان معاكسًا للأغراض التي تدعو إليها، جاريًا على غير طرائقها، فأي إياها ناقض؟ وكيف وجه مناقضته؟ وما بيان المفسدة التي اشتمل عليها مما يهدم قواعد شيء من تلك المقاصد ضرورية كانت أو حاجية أو تحسينية؟ وأي شيء يدفعه عن الدخول في هذه الأخيرة، ولو بوجه ما؟ وأي ذريعة فتح على المكمل المتعين شرعًا للسد والصد عن تورط المهالك، ومزالّ الضلالات السحيقة؟ وإن كان منه فتح فيجب البيان لكونها ذريعة ولمرتبتها من الذرائع هل البعد أو القرب أو التوسط أو التجاذب؟ حتى يعرف وجه الاعتبار أو الإلغاء أو الإرسال، وما محلها من الاعتبار وما معه من كل قسم له، لتحدد المراتب، وكون البعض منها متفقًا عليه، والبعض مختلفًا فيه، والبعض مرسلاً جوّانيًّا، والبعض غريبًا في الإرسال؛ بحيث لا اعتبار في جانبه أصلاً، ولا إلغاء؟ وهل هذا القيام يمكن أن يستثنى من محظورات أبواب التحسين التي قبلت من الاستحسان ما لا يحيط بمجموعه وصف، ولا يأتي عدد على جزئياته، أو لا سبيل لذلك بكل وجه وكل اعتبار؟ وهل المقصود في هذا الحكم الزجري يحصل يقينًا أو ظنًّا أو شكًّا أو وهمًا؟ وبتبيين ذلك يتبين جليًّا ما للأئمة في النظائر...

إنّ حرص الرافعي على طرح الأسئلة قبل أن يهجم على البحث لدليل على عقلية نظمتها الممارسة الفلسفية. نحن هنا أمام عقل فقيه يبحث عن الحجة "حتى تنقطع معذرة كل معتذر" مع الحرص على "إبداء التعليل لكل بيان بسيطًا أو مركبًا، ولو على وجه الإخالة"[33]، وهو يعلم أنّ المسألة التي يطرحها الموضوع

---

[32]- الحجوي: صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد ص2-3، ذكره أحمد زيادي، شيخ فلاسفة المغرب مرجع سابق ص هامش 3 ص 118

[33]- انظر نص الرسالة في الفصل السابع من شيخ فلاسفة المغرب، مرجع سابق ص ص 118-154

"ليست في الأهمية إلى هذا الحد، والواجب الاشتغال بالأعنى فالأعنى"[34]. لكن يبدو أنّ جواب الرافعي، على الرغم من هذا الإطار الفلسفي، كانت تحكمه مواقف مغرقة في التقليد الاجتماعي لسمك الأطر الاجتماعية الثقافية التي كان يتحرك داخلها.

الرافعي وعلماء العصر

كان الرافعي يراسل علماء عصره، ويبعث لهم أسئلة. كان يشبه الشاطبي الذي كان يستشير علماء عصره في كثير من القضايا العلمية، ويطرح عليهم أسئلة. طرح الرافعي على أحمد بن المواز أسئلة ستة بمناسبة صدور كتابه "حجة المنذرين، على تنطع المنكرين". كما وجه مثيلاً لها إلى الشيخ أبي شعيب الدكالي في الأصول والفقه والحديث والأدب، منها سؤال ألقي على شيخ الإسلام هاتفيًّا من الجديدة وهو "قولهم أفعل كذا، بحول الله، هل هناك ما يدل له من الشرع"[35]. وكثيرًا ما كان يبعث أسئلة لبعض العلماء إلا أنّه غالبًا لا يحظى بجواب. كانت الأسئلة تدخل في إطار الاهتمام الفقهي. وكان الفقهاء لا يجيبونه، بسبب أنّهم كانوا يلمسون منه، كما لا حظ ذلك المختار السوسي، ترفعه عن أفكارهم[36]. أو بسبب "ما كانوا يشمون فيها من ...محاولة التعجيز"[37].

لكن ثقافة الرافعي الفلسفية كانت تسمح له أن يستدرك على من كتب في هذا الإطار حيث إنّه لما ظهر كتاب "قصة الفلسفة اليونانية" استدرك على أحمد أمين وزكي نجيب محمود "أشياء هي من صميم الفلسفة الإغريقية" كما لاحظ صديقه أحمد زياد.

كما سمحت له هذه الثقافة من التأثير في معاصريه حيث نجد الأستاذ المكي الناصري يكتب نصًّا عن سقراط، كما كتب صديقه السائح عن ديكارت، وسيكتب الحجوي، بعد وفاة الرافعي، نصًّا في التوفيق بين الفلسفة والعلم والدين؛ والذي يجعلني أقوم بهذا الربط أنّ الأستاذ المكي الناصري كان على صلة بالفيلسوف الدكالي كما يُظْهِر ذلك الجواب الذي أجاب به عن الفتوى التي أرسلها له الناصري فيما يتعلق بصلاة الخسوف. وكان السائح صديق الرافعي المفضل، مثلما كانت للرافعي مناوشات فكرية مع الحجوي.

34- الرسالة القيام للتعظيم، مرجع سابق، ص 154

35- شيخ فلاسفة المغرب، ص 84

36- مشيخة الإلغيين، مرجع سابق، ص 264

37- شيخ فلاسفة المغرب، ص 82

تذوقه للموسيقى

لا أقصد بالموسيقى هنا الفن الخامس من العلوم الرياضية، إنّما أقصد طرب الأستاذ الرافعي للّحن الجميل وتذوقه للكلمة الغزلية البليغة على غير عادة الفقهاء. بل إنّ المختار السوسي أنكر على الفقيه، في حفلة لطرب الملحون، تذوقه للإنشاد، فرد عليه الرافعي بمرافعة علمية جميلة وأنهاه بعتاب رقيق؛ حيث ألقى عليه "درسًا في الملحون، وأنّه يحمل من المعاني الرقيقة والغزل المستطاب والشعور الحي، ما لا يكون موجودًا في منظومات من يزعمون أنهم شعراء بلسان عربي مبين" ثم ذكر له "أسماء شعراء الملحون وأنّهم من أغرب الرجال وأدقهم نظرًا" ثم شرح له أنّ "هذا الشعر من بقية الزجل المعروف الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته" كما شرح له ما يقوله المنشد الأعمى الذي كان "يحرك رأسه يمينًا وشمالاً، يتطاول برأسه أمام، يتتبع كيفية إنشاده ...فذكر أبياتًا جعل يتفلسف في معناها" ويعاتب المختار السوسي قائلاً له "أين ذوقك الأدبي؟ أين شاعريتك؟ فإن كنت لا تستحسن هذا المعنى، فإنّ ذلك سيبعث ريبًا كبيرًا مني في ذوقك"[38]. فكان الرافعي مثالاً يحاكي موقف الفلاسفة من الموسيقى واللحن الجميل والكلمة الرقيقة.

الرافعي، ناقدًا، عدلاً، ومناظرًا

كان الرافعي ذا عقلية نقدية، وهي العقلية التي تكونت لديه بسبب إقباله على دراسة العلوم الإسلامية، وكذا على دراسة العلوم العقلية، وانفتاحه على العصر، سواء من خلال متابعاته للصحف والمجلات القادمة من الشرق، أو من خلال استغراقه في مطالعة الكتب من مختلف المشارب العلمية، ومن حبه للمناظرة والحوار.

وكان الرافعي رجلاً عدلاً. فعلى الرغم من شخصيته العنيفة التي عرف بها فقد كان منصفًا في مواقفه، وهي، عندي، خلق فلسفي اشتهر به من فلاسفة الإسلام. ففي الفتوى التي أفتى بها المكي الناصري نجد الرافعي ينتصر له على الرغم من أنّ الناصري هاجم في كتابه "إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة" الطريقة الصوفية لفقيهنا الفيلسوف.

وكان الرافعي مناظرًا، فقد ناظر شيخ المختار السوسي الفيلالي في "الشيخ محي الدين بن عربي"، حيث كان الرافعي "يرفع مقامه ويشيد بذكره"[39]، في حين كان الفيلالي "يوصد دونه حتى باب الإسلام بحجج وبراهين من مقالاته تترك الإنسان مشدوهًا حيران" كما يقول السوسي[40]. كان الرافعي يؤيد قول ابن عربي

---

[38]- حول هذا الموقف بين الرجلين يراجع مشيخة الإلغيين، ص 266 و267

[39]- مشيخة الإلغيين، مصدر سابق، ص 264

[40]- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

بوحدة الوجود ويقول إنّ كل من خطأ ابن عربي من القدماء والمحدثين "لم يفهموا المقصود بها"[41]، وأنّه أنفق في فهمها عشرين سنة بعدما تعب ابن عربي في بلورة معانيها، وأنّ تفهيمها للآخرين ليس بالأمر السهل[42]، لكن الشيخ الفيلالي كان لا يقتنع له برأي ويصر على "تكفيره" لابن عربي.

فضلاً عن أنّ مقدمة رسالته في مسألة القيام للتعظيم تدل على شخصية حفية بـ"المباحثة والمناقشة" على عادة "سائر النظار ...من لدن صدر الإسلام إلى وقته، ذا صدر رحب في قبول الاختلاف، حيث يأذن لكل من لم يوافق كلامه أن يعرض عنه، ويعلن أنّ مقصده الأكبر من الكتابة هو "طلب الحق" ليس غير[43]، خاتمًا رسالته بتواضع الفلاسفة في ادعائهم الجهل وتأكيد المحبة للحق والإشادة به، وعدم عصمتهم من الخطإ[44]. ولا يعني هذا التواضع العلمي، الذي يصرح بها هنا، أنّ الرجل كانت بضاعته في العلم مزجاة، فهذا المختار السوسي الذي تتلمذ له في مراكش يقول عنه: إنّه "العالم الوحيد الذي ترتجف فرائص كثيرين من أفذاذ علماء المغرب اليوم، لأنّ حجته معه، مع جرأة ترغمك على القبول، والحق والصولة إذا اتحدا فهناك قوة تسيطر على كل شيء"[45]. لذا كان أصدقاؤه ومريدوه يعجزون عن تفسير شخصية الرافعي حتى قال السملالي: "فالرافعي شخصية يحار العقل في تعليل مداركها"[46].

لقد امتلك الرافعي ما لم يمتلكه كثير من معاصريه، فقد زاول "الفلسفة كثيرًا ودرسها دراسة عميقة وتشبع من مذاهبها وآرائها فتكيف بها فكره، واصطبغ بها ذهنه، فكان يفرغ ما يلقي عليه من المعلومات على قالبها ويكسوه بحلتها، ويدرسه على ضوئها، فلا يرى إلا بعين النقد والتحليل والفحص والتعليل، لا كما يرى الإنسان العادي على حد تعبير الفلاسفة"[47]، كما شهد بذلك صديق الرافعي محمد السائح، بل أحمد الزبادي اعتبره "شيخ فلاسفة المغرب".

41- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

42- المصدر نفسه، ص 264، يشير ناشر مشيخة الإلغيين إلى أنّ شيخ الرافعي في إدراكه "ماهية وحدة الوجود" عند محيي بن عربي كان هو محمد التادلي الرباطي، وإن كان الرافعي ينكر ذلك، انظر هامش 01 صفحة 270 من المصدر نفسه.

43- شيخ فلاسفة المغرب، ص ص 118-119

44- يقول الرافعي: "...فقد ذكرت ما ذكرته، وإنّي العبد المفلس من كل علم، بداع من المحبة في الحق، والإشادة به بهدم ما يخل به، أو بناء ما يرفع مناره... وإن زللت أو خطلت فأنا أهله..."، ص 154

45- مشيخة الألغيين من الحضريين، مرجع سابق، ص 263

46- شيخ فلاسفة المغرب، ص 70

47- شيخ فلاسفة المغرب، ص 60

فهل يمكن أن نطمئن بعد هذا كله إلى القول بريادة الحبابي للقول الفلسفي في المغرب، وهو الذي نشر أول أعماله الفلسفية في سنة 1954، أي بعد وفاة الرافعي بثلاثة عشر عاما؟ إنّ شخصًا كهذا لا بد أن يكون فيلسوفًا مغربيًّا كبيرًا؟

.3

تراث الرافعي

لا يمكن للمرء أن يحسم هذا الإشكال في الوقت الذي تكون كتابات الرافعي الفلسفية عزيزة، فهل يمكن أن نحصي ما تركه الرافعي من نصوص؟

إنّ كتابات الرافعي لا تتجاوز تعاليقه على ما قرأه أو رسائل شخصية، أو رسائل فلسفية كرسالته في وحدة الوجود وأخرى في تحقيق معنى العقل والنفس الكلية وأخرى صغيرة في تفسير الهيولى، ورسالة في الأطوال، وكتابة في قول للمولى عبد السلام بن مشيش[48]، وهي رسائل لم يقدر الاطلاع عليها. ولعزوفه عن التأليف تنبأ له أحدهم بأنّ النسيان سيسحب "عليه ذيله كما سحبه على غيره من علمائنا الذين ما ألفوا ولا كتبوا"[49]. إضافةً إلى أنّ الرافعي لم يكن متخصصًا، بل كان متمكنًا من علوم كثيرة "ولاسيما من علم الأصلين والخلاف العالي وعلوم الأوائل والتصوف ومعرفة النحل والمذاهب"، كما يقول صديقه محمد السائح[50]، وقد تساءل صديقه أحمد زياد وهو يعدد مظاهر عبقريته: "وإلا فأين الكلية التي ولجها حتى كان فيلسوفًا؟"[51].

إنّ الرافعي، كان موسوعيًّا، أخذ من كل علم بطرف "وكان لا يعرف الاقتصار على نوع واحد من العلم في بحثه، بل يتنقل بمناسبة، فترتع معه في حدائق مختلفة الألوان في ثمار صنوان وغير صنوان" كما يقول المختار السوسي الذي جالسه[52]. ولعل مرد ذلك أنّ الرافعي لم يأخذ الفلسفة على المجرى الصناعي، بل أوجد

[48] - شيخ فلاسفة المغرب، ص 60

[49] - شيخ فلاسفة المغرب، ص ص 76-77

[50] - شيخ فلاسفة المغرب، ص 59

[51] - شيخ فلاسفة المغرب، ص 66

[52] - مشيخة الإلغيين، المصدر نفسه ص 265، ويذكر المختار السوسي "أنّ دماغ الأستاذ ...يتسع لكل ما يسمعه منه، وخصوصًا في الفلسفة والحديث والتفسير والتاريخ، فهناك يجول جولانه في الحديث وذكره للمخرجين، تسمع وراء أصحاب الكتب الست والموطأ والمسند ذكرًا للدارقطني وابن عربي وابن بقي وابن عبد البر والخطيب البغدادي وابن نعيم وابن حزم والحاكم، ونظرائهم من الأساطين المعتنين بالحديث وفقهه، كما تسمع من أنواع التفاسير الأثرية، وغيرها عشرات فعشرات، تنتثر أسماؤها من فم الأستاذ، وإن جرى التاريخ فإنّه تحسبه لم يتوفر على سواه، فإنّ له مشاركة عظيمة في التاريخ العام والخاص. وبالجملة فإنّ لدماغ الأستاذ الرافعي خزانة من لم يرها أو لم يجلس أمامها شهورًا، فإنّه سيحمل المحدث على التغالي فيما يحدث به، أما نحن فقد جالسناه ما شاء الله، وعرفنا منه ما عرفنا من النواحي التي يمكن أن نطلع عليها بمجالسات عامة وخاصة"، ص ص 265 - 266

نفسه بنفسه بنهمه إلى القراءة حيث كان يظل ويبيت "في المناظرات والمطالعات والمقابلات" كما يقول[53]. فقد كان ملازمًا "للمطالعة والتقييد"، كما يظهر من "هوامش الكتب التي يطالعها كما أسلفنا. وعدم أخذ الفلسفة على المجرى الصناعي كانت من المآخذ القوية التي أخذها ابن رشد الفيلسوف على أبي حامد الغزالي في "تهافت التهافت" وجعلها في فصل المقال من أسباب الزلل في الفلسفة، ولعله من هذه الجهة أيضًا أوتي الرافعي وإن ذهب بعضهم إلى أنّ هذه الهوامش لو نشرت لوجد فيها "البحث الفلسفي المغربي أسسًا قوية يقيم عليها دعائمه". لكن هل يمكن حقًّا أن نفيد منها مع ما يتميز به أسلوب الرافعي من رداءة[54].

خاتمة مفتوحة

وأخيرًا، هل كان الرافعي فيلسوفًا أم كان فقط من الإرهاصات الكبرى للقول الفلسفي في المغرب؟

يبدو من نصوص الرافعي المتبقية أنّ الرجل لم يستطع أن يحقق تلك القفزة العلمية التي حققها فقيه فيلسوف مثل ابن رشد؛ فعلى الرغم من أنّ الفقيه والفيلسوف الأندلسي كان قاضي الجماعة بقرطبة فإنّ حياته العلمية الفقهية لم تكن بسعة حياته العلمية الفلسفية، فقد أدرك ابن رشد أنّ الحياة الأولى يكفي فيها كتاب في الفقه المقارن وكتاب في العقائد وكتاب في النحو وكتاب في الضروري في المنطق ومختصر في الأصول، أما الحياة الثانية، وهي الحياة بالحقيقة، فكانت متسعة عنده بسعة نصوص أفلاطون وأرسطو بخاصة، وسعة ما كتب في عصره من نصوص علمية وفلسفية، واستطاع ابن رشد بذلك أن يتحرر من اللغة الفقهية ويبني لغة فلسفية سيعرف بها. يبدو أنّ الرافعي لم يستطع أن يحقق شيئًا من ذلك، فقد ظلت اللغة التي كان يكتب بها لغة فقهية حتى الثمالة، والإشكالية التي يتحرك في فضائها إشكالية مجتمعية ثقافية تقليدية، والسبب في ذلك، على ما يبدو، أنّ الرجل لم يتوفر له متن فلسفي قوي بلغة قومه ولا شيوخ يعلمونه الفلسفة على المجرى الصناعي. لقد كان معاصروه يرون فيه عالمًا من العلماء الذين نقرأ عنهم في التاريخ[55]، مما يؤكد أنّ الرافعي كان ينظر إليه على أنّه عالم تقليدي لم يتجاوز إشكالية القدماء لا في النظر ولا في المنهج إلا قليلاً، وهذا المختار السوسي عندما لقيه أول مرة وجده "يقرر دليل المالكية والجمهور من الحديث في إيجابهم الإحرام على من يريد أن يدخل مكة غير متردد إليها ..."، وعندما نرى مناقشاته مع المختار السوسي وكذا مع غيره من فقهاء العصر نرى أنّ الرجل "يورد عن البيضاوي والسيد التفتزاني وغيرهم كثيرًا من عباراتهم يستظهرها كما يستظهر الفاتحة

---

[53]- ذكرها المختار السوسي في مشيخة الإلغيين، المصدر نفسه والصفحة.

[54]- ذكر المختار السوسي أنّ عبد الجليل ابن القزيز سأل الرافعي عن مسائل فأجابه بكراسة اجتهد أن يقرأها فلم يستطع: مشيخة الإلغيين المصدر نفسه ص 169 وقد أهداني الأستاذ الجليل عباس الجراري نسخة من كراسة للرافعي لم أستطع فك ألغازها إلى الوقت.

[55]- محمد المختار السوسي، مشيخة الإلغيين من الحضريين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى 2010، ص 258

زيادة على كلام الأشعري والماتريدي"[56]. فالرافعي لم يحقق القطيعة التي سيحققها الحبابي؛ إذ مع الحبابي الإشكالية حديثة والمنهج حديث أيضًا، الأمر الذي جعل من الحبابي فيلسوف المغرب الأول في العصر الحديث.

الإشكالية حديثة وهي إشكالية التشخصن والحرية، وهي الهم الذي كان يعرفه عصر الحبابي مع الشخصانية والوجودية والبرغسونية؛ لقد غرف الحبابي من معين الفلسفة الحديثة وأنشأ فلسفة تخلصه من المعاناة التي يعانيها باعتباره إنسانًا من العالم الثالث يرزح تحت نير الاستعمار ويطمح إلى تحقيق الحرية والتحرر. ومن هنا كانت كتابه "من الكائن إلى الشخص" سنة 1954، وكتابه "حرية أم تحرر" سنة 1956 وهما الكتابان اللذان دشن بهما الحبابي الممارسة الفلسفية الحديثة في المغرب، وحاول فيهما إدماج الفلسفة في السياق العربي الإسلامي من خلال هذا الجهد الذي قام به وهو يقرأ الشخصانية الفرنسية من خلال الوحي والثقافة العربية الإسلامية[57]، ليثبت في الأخير ضربًا من الجمع بين الضفتين. **"إنّ الإنسان، حسب الحبابي، ليس ما نحن عليه ولكن ما يتوجب أن نكونه، إنّه الهدف المعياري النهائي لسيرورة الشخصنة". الشخصانية تبدأ، يقول الحبابي، "حين يرفض الشخص قيم الخضوع والطاعة ويعترف بالعقل والروح كقيمة أعلى من غيرها"**، إذا كان الحبابي هو الفيلسوف الذي استأنف الفكر الفلسفي في المغرب، فإنّه فعل ذلك بدفع التفكير الفلسفي نحو الانتباه إلى مفاهيم الشخص والحريات والديمقراطية"[58]، **إنّنا أمام حس فلسفي جديد يتميز بالجرأة والقوة والخروج على المألوف، وهو ما لم يكن للرافعي أن يجرؤ عليه.**

لقد كان الحبابي ذا قصد فلسفي واضح من كتاباته، وهو القصد الذي أخطأ الرافعي الذي كان يعالج الفلسفة بالعرض، بمعنى كان يوظفها لأغراض تمس العقيدة، أو الفقه، أو التصوف، وليس معالجة فلسفية خالصة كما نجد عند الحبابي في نص فلسفي قوي مثل من الكائن إلى الشخص مثلاً. فحتى طلبه من شيخ الإسلام أن يُعرفه على مذهب ابن مسرة لم يكن لقصد معرفي خالص كما هو شأن المعرفة الفلسفية[59]، وانتصاره لمحيي الدين بن عربي كان انتصارًا عاطفيًّا لم يستطع أن يعلله على الرغم من إلحاح صديقه عليه[60].

---

[56]- مشيخة الإلغيين، مرجع سابق، ص 261

[57]- نأمل، إن أنسأ الله في العمر، أن نفرد دراسة عن علاقة الوحي بالفلسفة عند الحبابي.

[58]- محمد وقيدي، الشخص والحرية والديمقراطية، على صفحته على الفايسبوك

https: //www.facebook.com/mohamed.wakidi/posts/97384057263155

[59]- طلب الرافعي من الشيخ أبي شعيب الدكالي معلومات عن ابن مسرة.

[60]- مشيخة الإلغيين، المصدر نفسه، ص 264

إنّ شخصية، مثل شخصية الرافعي، في نبوغها، لو توفرت لها بيئة ملائمة لكانت لها الريادة الفلسفية لا محالة. ومع ذلك فإنّ الباحث المنصف لا يستطيع، في نجوة عن نصوص الرافعي الضائع منها والمخطوط، أن يحكم بقول فصل في هذا المجال.

لم يعش الرافعي حياة فلسفية كالتي عاشها الحبابي، فما درس الفلسفة قط ولا ألف فيها نصوصًا كعادة المتفلسفة والفلاسفة، ولعله لهذا السبب لم يُدْرج في أي ثبت يؤرخ للفكر الفلسفي في المغرب[61]. فقد اشتهر الرافعي بكونه فقيهًا تيجانيًّا أكثر منه مفكرًا فيلسوفًا[62]. لكن يظل الرافعي نموذجًا رائعًا للمثقف المغربي التقليدي المشبع بروح التفلسف في النصف الأول من القرن العشرين، فقد كان فقيهنا ذا عقلية تميز الأصول عن الفروع، والكليات عن الجزئيات. مهمومة بالسؤال والبحث والمناظرة.

لم يكن همُ الرافعي هماً نظريًّا، لقد كان هم الرجل همًّا إصلاحيًّا ـ فقهيًّا، فحرك الفضاء العلمي المغربي بحسب الجهد والحضور، ولعل ذلك أكبر أثر يمكن أن نحسبه لهذا الفقيه الفيلسوف.

---

[61]- مثلا: عبد السلام بنعبد العالي: الفكر الفلسفي في المغرب، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى 1983

[62]- مشيخة الإلغيين، المصدر نفسه ص 264

مسرد المراجع والاحالات

- المختار السوسي، مشيخة الإلغيين من الحضريين، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 2010
- عبد الله الجراري، المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي، الشركة الجديدة للثقافة، الطبعة الثانية، 1979، ص 14، وشيخ فلاسفة المغرب
- نص المقالة في مجلة الثقافة المغربية، العدد 21، السنة الخامسة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ـ البيضاء، 1981، بتقديم حسن السائح.
- نص التقريظ في شيخ فلاسفة المغرب ص 103-110 وهو موسوم بـ "ما الحلي إلا زينة لنقصيه"، وكان قد نشر بجريدة السعادة العدد 4232
- موسى أزدي، القيمة محمد بن أحمد الرافعي المولود بأزمور حوالي 1883 والمتوفى بالجديدة 1940 ضمن أعمال ندوة: دكالة تاريخ وفكر التي نظمتها جمعية دكالة مع جامعة شعيب الدكالي بالجديدة 1989
- محمد وقيدي، الشخص والحرية والديمقراطية، على صفحته على الفايسبوك https: //www.facebook.com/mohamed.wakidi/posts/97384057263155
- عبد السلام بنعبد العالي: الفكر الفلسفي في المغرب، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، 1983

 MominounWithoutBorders

 @ Mominoun_sm

 Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com